

## إباحية أم حرية!

### "يا إخوة كلُّ شيء مباح ولكن ليس كلُّ شيء موافق"

هاتان الكلمتان في عبارة بولس، "مباح" و"موافق"، تلخصان كلَّ الفلسفة البشريّة حول "المبادئ"، أي حول أهمّ معيار في حياة الإنسان. الإباحية: "مباح" تعني استخدام أيّ شيء دون أي قيد أو رابط. لا مرجعية عند الإباحيِّ إلاّ غريزته. وهكذا يفسّر الإباحيُّ حرّيته بالتحرّر من كلِّ قيد أو عقيدة أو عادة أو عرف. أمّا الحرّية فتتنظر إلى الأمور ليس من منظور الغريزة والدوافع العمياء، وإنّما من منظور "الموافق" بين الأمور. فالحرّية إذن قبل كلِّ شيء، تعني وجود الخيار والاختيار والتفضيل بين أمرين على معايير يحددها العقل والحكمة البشريّة. وهذا التمرين على الخيار يكوّن الشخصية الإنسانيّة. لذلك الغرائزيّ والإباحيُّ هو إنسان دون شخصيّة! أما الحرّ فهو الشخص الواضح.

"كلُّ شيء مباح"، وهذا من حيث المبدأ ممكن! فلا شيء نجس وكلّ شيء طاهر، والنجس أو الطاهر ليس في الجسد ولا في الطعام ولا في الجنس ولا في أيّ شيء، وإنّما فقط في الاستخدام الخاطئ أو الصالح للأمر. لهذا كلُّ شيء فعلاً مباح، أمّا السؤال فهو: ما هو الاستخدام الموافق؟

"الإباحيُّ" يرفض كلَّ المبادئ ويخضع لإيديولوجية حرّية الغريزة ويفقد حقيقة حرّية الخيار! للإباحيِّ،

الصوم تعذيب للذات! للإباحيِّ الجنس هو مجرد متعة ممكنة بأيّ أسلوب وأيّ زمان، وحسب!

ونحن المسيحيّين أيضاً، لسنا دائماً بعيدين عن إباحية عصرنا الاستهلاكيّ! وعلى سبيل المثال، حين نتكلّم على الصوم يبدو لكثيرين أنّنا نتكلّم عن واجبات مبالغ بها أو لفئة خاصّة من الناس نطوّبها أو نرفضها. أمّا لو تكلمنا عن الرجيم (régime) فتبدو إنساناً متمدّناً منظّماً ترعى جسّدك. ولو لاحظنا الغرابة أنّ عدد المسيحيّين اليوم الذين يمارسون أقسى ألوان الرجيم أكبر ربّما من عدد الذين يمارسون الصوم. والرجيم الذي يمارسه هؤلاء أقسى بكثير من شكل الأصوام التي تعلّمنا إيّاها الكنيسة. لكن في فلسفة مجتمع الإباحية لا يمنع الطعام إلاّ الضرر في الصّحة. وهكذا تمنع الطبيعة تفاقم الإباحية وتحدّ من حرّيتها.

وما أدراك حين تتكلم الإباحية في شأن لا تؤمن به كالصوم فترانا نسمع أن "الصوم صحّة"؟ حاشى أن نصور للصحة (أي رجيم)! مع أننا لا نصرّ صحتنا حين نصوم. لقد تفنّن الناس بتنويع وتفخيم الطعام وإيجاد الأدوية التي تمنع من ضرر هذه الإباحية في الرفاهية. وأين الصوم وفلسفة النسك والحياة الروحية؟ ما الضرر من الممارسات الجنسية حين تشكّل متعة للطرفين؟ سؤال طرحه عليّ أحد الشبان يوماً! من وجهة نظر إباحية فعلاً لا ضرر فيه، وما كان ينشأ عن مثل هذه العلاقات، سابقاً، من نتائج كمشاكل الإنجاب أو تعدّي الأعراف الاجتماعية، كلّها نتائج قد زالت أو في طريقها إلى الزوال، فأين الضرر فعلاً؟

مراجعة للذات بسيطة تكشف لنا أننا مرّات عديدة نفكّر هكذا، أو نقبل هكذا تفكير، أو على الأقل نقف عاجزين عن الجواب وفي حيرة، إن لم يكن في شك؟ نعم نحن مرّات عديدة مغلوبون أمام هجوم الفلسفة الإباحية في مجتمعاتنا!

"ليس كلّ شيء موافق!" هذه صرخة بولس المخلّص، التي تضرب بالفلسفات الإباحية. إنّها آية تفضح معنى العبودية وتحرّر معنى الحرية من طغيان الإباحية. الخيار مسألة هامة، حين يفقدها الإنسان يُستعبد لغريزته. ولا يميّز الإنسان عن سائر الحيوانات، لا كيانه الحيواني ولا ذكاؤه ولا أيّ أمر، إلّا خياره -حرّيته! أي تشغيل عقله والالتزام بإيمانٍ محدّد في الحياة يصير معياراً لخياراته. ليس الإنسان كتلة لحمية وعظمية!

وما دمنا قد قرّرنا أن نختار الموافق من غير الموافق، علينا إذن أن نحدّد المبادئ، بحريتنا التي نختار ما تقتنع به وتقدره. فما هو المعيار الذي يحدّده بولس الرسول اليوم في الرسالة؟ هناك معايير طبيعية يعرفها كلّ الناس حتّى الإباحيون منهم وهي ما نسمّيه الضمير. وهناك معيار آخر هو "حسن التعايش"، أي سلامة المجتمع، وهي المعايير المدنية للحكومات وللأديان. فالأولى (الدول) تعيد السلطة على هذا المعيار للمجتمع، والثانية (الأديان) تعيدها لما تسمّيه "الله"! ويبدو الدين كما الدولة مؤسّسة لتنظيم حياة الناس مع بعضهم البعض بشرائع متفاوتة في الرقيّ.

ولا أرقى في الشرائع من: "مَنْ ضربك على خدك الأيمن حوّل له الخدّ الأيسر"! لكن حاشى أن نفكّر أن المسيحية مجرد خطوة أرقى في الشرائع الإنسانية. ما هو جديد في المسيحية ليس معيار التشديد في الشرائع، وكما يقول البعض هذه (المسيحية) دين للملائكة! لا، المسيحية تنظر للإنسان

لا على أنه "كائن اجتماعي" وحسب، بل على أنه كائن إلهي، يسعى إلى الملكوت وليس إلى مجرد حياة اجتماعية سليمة. الكمال المسيحي يكون مجتمعات سليمة ولكن لا يُحصر بكماله فيها. "أنتم هيكل الروح القدس" هذا هو معيار بولس الرسول. غاية الإنسان هي تكوين الشخصية الإنسانية الروحية. وعلى هذا المعيار نعرف ما هو موافق وغير موافق.

هل اللحم نجس؟ بالطبع لا! لكن هل هو موافق؟ بالطبع نعم، ولكن أوفق صيغة اللحم ليس عندما نستخدمه للطعام والتغذية، ولكن عندما نستخدمه للصوم بالانقطاع. حين نتناوله يفيد صحتنا، وهذا ضروري، وحين نتعفف عنه وعن لذته لا نعدّب ذاتنا الحيوانية وإنما نبني ذاتنا الروحية، هيكل الروح القدس. وهذا الاستخدام أثنى وأكرم. من هذا المبدأ فقط نعرف معنى الصوم ومعنى العفة ونعرف متى وكم نأكل اللحم ومتى وكم نمارس الجنس حيث نبقي هيكلًا للروح القدس دائماً. "لحم أو دم" لا يكشفان الأسرار الإلهية، كما قال الرب يسوع لبطرس، حين أعلن هذا الأخير أنه أدرك عمق السرّ الإلهي: "أنت ابن الله الحي". والإنسان لا يرفض اللحم وأي أمر آخر! لكنه "لا يتسلط علينا أي شيء". حرّية الإنسان ليست الإباحية وإنما التحرر من الغرائزية والمقدرة عندها على الخيار الحرّ بين ما يوافق وما هو غير موافق.

"إنكم لستم لأنفسكم"، أي لسنا لغرائزنا، وإنما لكي "نمجد الله في أجسادنا وأرواحنا" ببناء الإنسان الحرّ الروحاني هيكلًا للروح القدس، بالأصوام والأسهار والصلوات، في رياضات روحية تخرجنا من دهرية هذا الزمن وتضعنا في أبدية الإنسان الروحاني، آمين.